(٢)

لقاء مع التاريخ

١٣٩٢ هـ : ١٩٧٢ م

•

- لبيك اللهمَّ لبيك
- فى دار الهجرة
- عَوْدٌ على بدء

* * *

- من وحْىِ الملتقَى

– من ذُرا عرفات إلى سفح المكبَّر

– أغنية للعيد

– رسالة العيد

لبَّيك اللهمَّ لبَّيك

على غير موعد كان هذا اللقاء مع التاريخ .

كنتُ إلى شهر ذى القعدة من عامنا الحالى – ١٣٩٢ هـ – فى المغرب الأقصى مشغولة بدراساتى القرآنية فى جامعة القرويين ، أرى فيها الجهاد والعبادة .

وقومنا هناك مشغولون بمراسم الوداع لخمسة عشر ألفاً من الحجاج المغاربة ، فى حفلات سيطرت على ديار المغرب ، وملأت الأفق بموشحات وأناشيد أرهفت شوق القاعدين ، وأنا منهم .

وأرَّقنى الحنين إلى الحرمين ، من حيث بدا أن لا مكان لى على الطائرات المحجوزة كلها ، إلى آخر يوم يدرك موسم الحج .

وقد دنا الموعد ، والأمل يبدو بعيداً . .

ثم أذن الله تعالى فهيأ لى الأسباب من حيث لا أتوقع . وفى أيام معدودات كانت إجراءات سفرى قد تمت بفضل همة السفير السعودى فى الرباط « السيد فخرى شيخ الأرض » وصحبتنى مروءته حتى ركبت الطائرة من الدار البيضاء ، مع آخر فوج من الحجاج المغاربة .

ومعى ما تيسر من الدراهم ، وزادٌ قليل من الخبز القديد والإدام الجاف ، قدَّرت أنه يكفينى مع التقشف ، فى رحلة نسك وعبادة .

* * *

بلغنا مطار جدة فى الصبح الباكر من يوم الجمعة ، الرابع من ذى الحجة ، لأجد نفسى فى ضيافة سمو الأمير الشاعر « عبد الله الفيصل » من حيث لم أحتسب أنه مايزال يذكرنى ، وآخر عهدنا باللقاء مجلس سمَر فى أمسية قاهرية بعيدة ، طربنا فيها على نغم قصيدته الشجية (سمراء) .

وأثار لقاؤنا الجديد شجون ذكريات لمجالس حافلة جمعَتنا قبل عشرين سنة فى جدة وفى مصر ، كنا فيها نستقبل الحياة والدنيا بخيرٍ والبال خَلىٌ .

وفيما كنا فى المساء بقصر جدة ، نسترجع الذكريات ونتناشد الأشعار ونتشاكى أشجاننا

وهموم أمتنا ونتدبر عبرةَ أيامنا ولياليا ، استأذن زائر من رجال المراسم الملكية ، تحدث إلى سمو الأمير « عبد الله » فالتفت إليَّ ليبلغني متلطفاً ، أنني انتقلت من ضيافته إلى ضيافة جلالة الملك الفيصل ، حفظه الله .

وخَطر على بالي وأنا مأخوذة بهذه الرعاية الكريمة المضاعفة ، ما جئت به معي من زاد الخبز القديد والإدام الجاف ، حملته من أقصى المغرب إلى جدة ، عبر قارات ثلاث .

وبقي عليَّ أن أتدبر حيلة للتصرف في توزيعه بوسيلة أو بأخرى . . .

وشهِدتُ الموسم مع مليون وخمسين ألف حاج ، وسِعَتْهم الأرض المباركة حيث يقضون مناسك حجهم معاً ، ويتحركون في وقت واحد من المطاف إلى مقام إبراهيم فالمسعى ، ويبيتون جميعاً ليلة الوقفة في منى ، ويبكرون معاً في الصبح إلى عرفة ، ومنها يفيضون بعد غروب الشمس إلى مزدلفة ، ومعاً يعودون إلى مِنى فتؤويهم أيام التشريق على رحبٍ وسعة !

وإن أكبر عواصم العالم لتضيق ببضعة ألوف من السائحين ، إن طرءوا عليها في وقت واحد . . ويُعييها أن تدبر لهم المنزل والطعام ووسائل الانتقال . .

* * *

في كل خطوة وكل موقف ومشهد ،

وجدتُني مع التاريخ في أم القرى والبيت العتيق :

مدَنية العصر قد غزَت الوادي الأجرد غير ذي الزرع ، وأسراب الطائرات والسيارات قد حلَّت محلَّ النوق والجمال ،

والكهرباء أبطلت وقود الحطب ،

والرخام يرصف ساحة البيت العتيق وطريق المسعى ، مكانَ الحصى والرمال .

والمباني العصرية تقوم حيث كانت الدور البدوية البسيطة .

ولا شيء من هذا كله ، يَمَس روحَ المكان . .

تغير الشكل والمظهر ، وبقي للمكان جوهرُ شخصيته التاريخية ، يتألق بنور قداسته ويتوهج بسنَا أصالته وعراقته .

والكعبة تستبدل بكسوتها كلَّ عام أخرى جديدة ،

وتبقى شخصيتها بمنأى عن طوارئ التغيير : مثابة الحج ومهوى الأفئدة ، وبيت الله الحرام ، أقدم بيت عُبِد فيه سبحانه وتعالى على الأرض ، وأحب أرض الله إلى الله ورسوله وأمته .

وكذلك تتغير أشخاص الحجاج موسماً بعد موسم ، وتختلف شخصياتهم من جيل إلى جيل .

والسَّمْت واحد ، على تفاوت الأجيال ،

والشعائر والمناسك واحدة ، على تباعد السنين والقرون . .

ويتصل الحاضر بالماضى عبر حقب ودهور ، فى هذه البقاع المباركة التى تحتفظ بجوهر شخصيتها منذ عرفها التاريخ مثابة للحج وأمْناً ، فلسنا نراها اليوم إلا كما رآها آباء لنا وأجداد على مر الزمان :

لبوا كما لبَّينا ، وطافوا مثلما طفنا ، وسعوا كما سعينا ، ووقفوا بالمشعر الحرام وعلى عرفات كما وقفنا ، ونفروا إلى المزدلفة كما نفرنا ، ونحروا فى مِنى كما نحرنا ، وباتوا بها ليلة الوقفة وليالى التشريق حيث بتنا .

والأماكن غيرها تتغير وتتبدل ، فيطمس جديدُها معالمَ القديم ، ويَدُكُّ عمرانُها المحدث أطلال العتيق ، فلو أن أحداً من أهلها غاب عنها بضع عشرات من سنين ، ثم عاد إليها ، لأنكرها وأنكرتْه ، وأعوزه فيها ترجمان ودليل . .

* * *

كم عرفت الدنيا بيوتاً غير هذا البيت العتيق !

كم شِيدَتْ من قبله ومن بعده ، قصور باذخة ومعابد شامخة وصروح ممردة شاهقة !

وهذا البيت العتيق حيث هو منذ كان ، تتضاءل دونه أبهى البيوت وأفخم القصور وأعلى الصروح !

وراء المعروف من تاريخه الدينى ، دهور وأحقابٌ موغلة فى أعماق ما قبل هذا التاريخ ، شهد الزمن فيها موضع هذا البيت ملاذاً للضاربين فى مفاوز الفلاة ، يلتمسون لديه الأمن والراحة ، ويؤدون فى حماه شعائر عبادتهم التى ارتدت فى ظروف مجهولة إلى وثنية ضالة ، هجرت البيت العتيق فلم يبق منه سوى أطلالٍ جذبت إليها « إبراهيم » فجاءها من أرض كنعان ، وترك عندها ولده إسماعيل مع أمه هاجر .

لم يجد لها ملاذاً سوى جوار البيت المحرَّم العتيق عندما ضاقت بهما امرأته السيدة سارة وأصَرَّت على ألا يضمّها وجاريتها الولود سقف بيت واحد .

فى جوار البيت العتيق أنزلها ، وانصرف عائداً إلى أرض كنعان وهو يدعو ربه :

« ربَّنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربَّنا ليقيموا الصلاة ،

فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

واستجاب الله لدعائه ، ونظر إلى الأم المنبوذة قد أجهدها السعى بين الصفا والمروة بحثاً عن قطرة ماء أو أثر لحياة فى الوادى القفر الماحل .

حوَّم طائر على المكان ونبش فى الأرض فانبجس الماء من نبع زمزم . ونجا إسماعيل ، وانبثت الحياة فى القفر : مرَّت قافلة من جرهم قرب المكان ، فلمحت الطير محوِّماً عليه ، واتجهت نحوه لعلمها أن الطير لا يحوم على غير ماء . وألقت رحالها حول النبع المبارك .

وبورك مسعى الأم بين الصفا والمروة ، فأخذ موضعه بين شعائر الله فى الحج .

فذلك هو مسعانا مهرولين بين الصفا والمروة ، مثلما سعت هاجر التى دخلت التاريخ الدينى بهموم أمومتها ، وأعطت « عيدَ الأم » عندنا قيمته ومعناه .

وعاد إبراهيم إلى ولده وقد بلغ معه مبلغ السعى ، فأفضى إليه برؤياه : أن يذبحه قرباناً لربّ هذا البيت العتيق .

وامتثل الفتى لأبيه فى أمر ربه صابراً لم يتردد . . .

ثم تجلت رحمة الله بعد ذلك البلاء المبين فكانت آية الفداء :

« فلَمَّا بلَغَ مَعهُ السَّعىَ قالَ يا بُنَىَّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحُك فانظرْ ماذا ترى ، قال يا أبَتِ افعلْ ما تؤمَر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلَما وتَلَّه للجَبِين . ونادَيْناهُ أنْ يا إبراهيم . قَد صَدَّقتَ الرؤيا إنا كَذلك نجزى المحسنِين . إن هذا لهوَ البلاءُ المبينُ ، وفديناه بذبْحٍ عَظيم » .

وخلَد المشهد شعيرة من شعائر الدين ، فكلما هلَّ عيد الأضحى نحرنا الضحية فى مِنَى ، أو حيثما نكون ؛ ذكرى وعبرة ، وإحياء لمشهد البذل والفداء طاعة وتقوى .

والعبرة فى الشعائر بالتقوى :

« لن ينال الله لحومُها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » .

« ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب » .

وبلغ الذبيح المفتدَى أشُدَّه ، فأصهر إلى جرهم وتعرَّب فيها لتعمر مكة بذريته العرب العدنانية المتعربة .

وتلقى العَهد مع أبيه إبراهيم :

« وإذ جعلنا البيت مثابةً للناسِ وأمْناً واتَّخذوا من مقام إبراهيم مُصَلّى ، وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيلَ أنْ طهِّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركَّع السجود » .

واستجابا لأمر الله تعالى واتجها إليه بالضراعة والابتهال والدعاء :

« وإذ يَرفعُ إبراهيم القواعدَ مِنَ البَيْتِ وَإسماعيلُ ربَّنا تَقَبَّل منا إنك أنت السميع العليم ، ربَّنا واجعلنا مُسْلمَين لكَ ومن ذُريتِنا أُمَّةً مُسلمَة لكَ وأرِنا مَناسِكَنا وتُبْ عَلَيْنا إنَّك أنت التَّوابُ الرحِيم . ربَّنا وابعث فِيهم رَسولاً مِنْهُم يَتلو عَلَيْهِم آياتِك ويُعلِّمَهُم الكتابَ والحكْمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيزُ الحكيم » .

فتلك هى صلاتنا فى مقام إبراهيمَ بعد الطواف بالكعبة فى حَجٍّ أو عمرة .

ومن ذلك المَاضِى الموغل فى القِدَم ، كان الأذانُ فى الناس بالحج إلى بيت الله المحرَّم المطهر :

« وإذ بوَّأْنا لإبراهيمَ مَكانَ البيْتِ أنْ لا تُشركْ بى شَيئاً وطَهِّرْ بَيتِىَ للطائفِينَ وَالقائِمين والرُّكَّعِ السُّجُود . وأذِّن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامرٍ يأتينَ مِنْ كلِّ فَجّ عَميق » .

* * *

وتأصلت حرمة أم القرى لموضعِ هذا البيت منها ، فما عرف التاريخ سواها عاصمة دينية للعرب فى الجاهلية .

وقد غبرت عليها عصور بعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ارتدَّ فيها العرب إلى الوثنية ، دون أن تفقد مكةُ حُرمتها فيهم ، أو ينقطع حجهم إلى بيتها العتيق .

وغلب عليهم اليقين أن مكة (لا تُقِرُّ فيها ظُلماً ولا بغياً . ولا يبغى فيها أحدٌ على أحد إلا أخرجتْه ، ولا يُريدُها ملكٌ يستحلّ حرمتها إلا هلك مكانه) .

والمرويات عن تاريخها مع الجبابرة المفسدين ، شاهدة على رسوخ ذلك اليقين[1] :

بغى فيها جُرهم . فأخرجهم بنو إسماعيل منها أذلة صاغرين ، يبكيهم شاعرهم راثياً :

كأن لم يكن بين الحَجون إلى الصَّفا أنيس ولم يسمر بمكة سامِرُ

وهمَّ « تُبَّع الحِميرى » بالبيت العتيق يريد إخرابه ، فيُروى أنه رُمِى بداء تمخض منه رأسُه قيحاً وصديداً ، وتيبستْ أطرافُه وأعيا الطبَّ علاجه . حتى نُصحَ بأن يرجع عما أراد بالبيت العتيق .

وحملوه فطاف به معظِّما ، وكسا الكعبة وأطعم الناسَ ، فنجا . .

---

(١) اقرأها بتفصيل فى الجزء الأول من : السيرة النبوية لابن هشام ، وطبقات ابن سعد ومعها : تاريخ الطبرى ، وتاريخ مكة للأزرقى .

وهلك من بعده صاحبُ الفيل « أبرهة الحبشى » : كان قد بنى كنيسة فخمة فى صنعاء ليصرف إليها حجَّ العرب . وجلَب إليها (الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب ، من بقايا قصر بلقيس ملكة سبأ . ونصب فيها صُلبانا من الذهب والفضة ومنابر من العاج والآبنس . ثم كتب إلى مولاه نجاشى الحبشة : إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسةً لم يُبْنَ مثلُها لملك كان قبلك ، ولست منتهياً حتى أصرف إليها حجَّ العرب) .

لكن أبرهة هلك دون غايته .

منع الله بيته الحرام ، وسلَّط على أصحاب الفيل وباءً مهلكاً ، رمتهم بحراثيمه طير أبابيل ، فجعلتهم كعصف مأكول .

ولم يكن لمكة عهد قبل ذاك بوباء الجدَرى ، فيما نقل « ابن هشام » فى (السيرة النبوية) .

وبقى البيت العتيق فى أم القرى مثابة للناس وأمناً ، ومثابة الحج لقبائل العرب جميعاً .

وبلغ من رسوخ اليقين بحرمته ، ما تناقلته الأجيال إلى قبيل عصر المبعث فى تفسير لوثَنى أساف ونائلة ، تذكره السيدة عائشة أم المؤمنين فتقول فيما نقل ابن هشام :

« مازلنا نسمع أن أساف ونائلة رجلا وامرأة أحدثا عند الكعبة ، فمسخهما الله حجرين لاعتدائهما على حُرمة الكعبة » .

وفى ليل الجاهلية ، بقيت ذكرى مناسك الحج على تقادم الزمن من عهد إبراهيم وإسماعيل ، وإن مسختها الوثنية العمياء ، طقوساً صماء .

ويقدم التاريخ تفسيراً دينيًّا لهذه الوثنية ، يرتبط بقداسة البيت العتيق عند العرب ومنزلته فى عقيدتهم وقلوبهم ، فيما نقل « ابن هشام » بالسيرة النبوية :

« أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل ، أن كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم ، حين ضاقت عليهم وتفسحوا فى البلاد ، إلا حَمَل معه حجراً من حجارة البيت تعظيماً للحرم . فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافِهم بالكعبة » .

ثم مع الزمن ، تاهت الدلالة الرمزية ، وبقيت الحجارة أصناماً يعبدون فيها ربَّ هذا البيت لتقربهم إليه زلفى : « ألا للهِ الدِّين الخالِصُ والذين اتخذوا مِنْ دُونه أولياء ما نَعبدُهُم إلا لِيقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلْفَى » .

* * *

وكان لمكة فى الجاهلية الوثنية ، أشهر أربعة حرم ، لا يحلُّ فيها قتال إلا أن ينسأها لهم أحد النسأة ، فيؤجل حرمة الشهر منها إلى آخر من الأشهر غير الحرم .

النسىء كان وظيفة من الوظائف الدينية العريقة التى تعتز بها القبائل ، فيقول « عمير بن قيس » يفخر بالنسأة من قومه بنى مالك بن كنانة :

ألسنا الناسئين على مَعَدٍّ شهورَ الحِلِّ نجعلها حراما ؟

كما افتخر « أوس بن تميم السعدى » بما كان قومه يتولون من إجازة الناس بالحج من عرفة :

لا يبرحُ الناس ما حَجُّوا مُعَرَّفَهم حتى يقال : أجيزوا آلَ صَفوانا

مجدٌ بناه لنا قِدْماً أوائلُنا وأورثوه طوالَ الدهر أخرانا

وفى قريش ، كان شرف وظائف سقاية الحجيج ورفادتهم فى الموسم ، وراثةً من جدهم « قصى بن كعب بن لؤى » المضرى العدنانى .

ويذكرون من خبر السقاية ، أنها لما آلَتْ إلى « عبد المطلب بن هاشم » – جد المصطفى عليه الصلاة والسلام – شقَّ عليه ما يلقى الحجيج من شُح الماء . فذكر بئر زمزم التى أنقذت جده إسماعيل وجذبت إلى مكة قوافل الرعاة . وكان الناس إلى زمن عبد المطلب ، يتناقلون خبر جرُهم لما طمرت بئر زمزم ، عند خروجها من مكة . فتعلق أمل عبد المطلب بالعثور على النبع المبارك المطمور . ومع طول التفكير صار هذا الأمل مشغله ليله ونهاره . حتى دلَّته رؤيا ملهمة على موضع البئر ، فغدا إليه بمعوله ، ومعه ابنُه الحارث ، ليس له يومئذ ولد غيره . فلما همَّ بالحفر تصدت له قريش تتحداه أن يحفر هناك . وقد استضعفته أنْ لم يكن له غير ولد واحد . لكنه لم يبال غضب قريش ورفضها ، وتابع الحفر حتى بدت له الحجارة التى طُويت زمزم تحتها . وعاد الماء فتدفق من النبع المبارك ، يسقى الحجيج . .

يومها ، نذر عبد المطلب لئن وُلِد له عشرة أبناء وبلغوا معه بحيث يمنعونه ، لَينحرنَّ أحدهم عند الكعبة . وتوافى بنوه عشرة ، فتلبث عبد المطلب حتى بلغ أصغرهم « عبد الله » رشده ، ثم دعا بنيه إلى الوفاء لله بنذره ، فلبُّوا طائعين ، وما يدرون أيهم الذبيح حين خرج بهم أبوهم إلى الكعبة وقد حمل كل منهم قدحاً باسمه . وضرب صاحب القداح عليها ، فخرج على قدح عبد الله ، وقد كان أبوه يتمنى فى نفسِه ، أنّ لو أخطأه السهم . . .

وتكررت قصة الفداء : همّ الشيخ بذبح ولده ، فما إن مَسَّت الشفرة منحره حتى قامت قائمة قريش ، وقد هالها أن يغدو عملُ عبد المطلب تقليداً يُتبع ويورث ، أو كما قالت يومها :

« والله لا تذبحه أبداً حتى تُعذَر فيه . لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه ، فما بقاء الناس على هذا ؟ » .

وأجمعوا أمرهم على أن يستشيروا فيه عَرَّافةً لهم بخيبر . قالت ، لما عَرَفَت أن الديَة فيهم عشر من الإبل :

– ارجعوا إلى بلدكم فاضربوا القداح على ولدكم هذا وعلى عشر من الإبل ، فإن خرجتْ عليه فزيدوا عشراً ثم عشراً حتى تخرج القداح على الإبل . فانحروها عنه وقرّبوها ، فقد رضى ربكم .

وفعلوا ، فمازال القدح يخرج على عبد الله وهم يزيدون الإبل عشراً فعشراً ، حتى بلغت مائة ، فخرجت القداح عليها . ولم يطمئن عبد المطلب حتى كرروا ضرب القداح ثلاث مرات ، وهى تخرج على الإبل المائة . فنحرها وتُرِكتْ لا يُصَدّ عنها إنسان ولا وحش .

ونجا عبد الله ، واسترجعت مكة ذكرى الذبيح المفتدى الأول : إسماعيل ، جد قريش والعرب العدنانية .

ومن الكعبة خرج عبد المطلب بولده عبد الله إلى بيت سيد بنى زهرة : وهب بن عبد مناف الزهرى ، فخطب ابنته « آمنة » عروساً لعبد الله ، « وهى يومئذ أفضل فتاة فى قريش نَسَباً وموضعاً »

* * *

فى عام الفيل ، وُلِد اليتيم الهاشمى الذى مات أبوه عبد الله فى طريق عودته من رحلة الشام ودُفن فى ثرى يثرب ، ولم يقبل الموتُ فيه هذه المرة أى فداء :

وفى السادسة من عمره ، خرجت به أمه آمنة من مكة إلى يثرب ، لزيارة قبر أبيه عبد الله هناك . وغالها الموت فى طريق الإياب ، فدفنوها بالأبواء ، وتابع محمد سيره إلى مكة ، وحيداً محزوناً مضاعَفَ اليتم .

وفى صباه ، شهِد حِلْفَ الفضول فى دار ابن جدعان بمكة ، وفيه تعاقدت أحياء قريش على ألا تُقر فى مكة ظلماً ، ولا يُظلم فيها أحد إلا كانت على ظالمه حتى ترد مظلمته .

فى الخامسة والثلاثين من عمره ، كان حادث تجديد بنيان الكعبة الذى حسم فيه محمد خصومة معقدة بين قبائل قريش ، أنذرتْ بحرب :

كانت الكعبة قد مسَّتْها شرارة من مجمرة إحدى النسوة ، فأحرقت ستائرها وأوهَتْ

بنيانها . ووقفت قريش أمام حرمها الأقدس مكتوفة الأيدى لا تدرى ماذا تفعل ، تهيباً من المساس ببقايا البيت العتيق . وشاع أن البحر رمى بسفينة جنحت إلى ساحل جدة ، فأسرع إليها رجال من قريش ثم عادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل من قبط مصر ، نجار بنَّاء .

وتم الاستعداد لتجديد بنيان الكعبة وقريش ماتزال تتهيب أن تمس بقاياها ، حتى قام « الوليد بن المغيرة المخزومى » فأخذ المِعوَل وقال : « اللهم لم نزغ ! اللهم إنا لا نريد إلا الخير » .

ثم أهوى بالمعول على البنيان المتصدع ، والقوم ينظرون إليه مشفقين عليه وعلى أنفسهم . فلما لم يصبه سوء ، تلبثوا ليلتهم مترددين يتربصون عاقبة ماكان . فلما أصبح « الوليد » غادياً على الحرم لم يمسسه شر ، هدموا معه . وتنافست القبائل فى جمع الحجارة للبناء ، حتى إذا تم ، اختصموا فيما بينهم أيهم يستأثر بشرف رفع الحجر الأسود إلى موضعه . وقد كان أقدم أثر باق من البيت العتيق .

ومكثوا على الخلاف بضع ليال ، ونذر الحرب تزداد . حتى تراضوا على أن يُحكموا بينهم أول من يدخل من باب البيت الحرام .

وتعلقت أبصارهم بالباب فى انتظار الحكَم ، فكان أول مَن دخل : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

هتفوا جميعاً : هذا الأمين ، رضينا بحكمه .

وحدَّثوه بالأمر ، فطلب ثوباً ثم تناول الحجر فوضعه فيه ، وقال للقوم من حوله : « لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً » .

فعلوا ، حتى إذا بلغوا به مكانه ، وضعه « الأمين » بيده ، ودعَّم بناءه .

وانجابت الظلال عن أفق أم القرى .

هكذا على طول المدى ، كان لمكة حرمتُها وللبيت العتيق مكانه وجلاله .

* * *

حتى بزغ الفجر الصادق من ليلة القَدْر المباركة وخرج المصطفى « محمد بن عبد الله » مبعوثاً بختام رسالات الدين ، يتلو فى الأمين كلمة الوحى الأولى : اقرأ . .

ونسخ نور الفجر ليل الجاهلية ، فتطهرت ساحة البيت العتيق من الأصنام ، وانطفأت نار المجوسية ، وترنحت صروح الجبابرة تريد أن تنقض .

ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وأظل لواؤه شعوب الدنيا من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب أمة واحدة : قبلتها هذا البيت العتيق .

* * *

وتمضى الأعوام والقرون .

وتتعاقب الأجيال والعصور ،

والتاريخ مشدود إلى حشود الحجيج فى الموسم الدورى من السنة القمرية ،

يسعون إلى البيت العتيق محرمين متطهرين ، خاشعين قانتين . قد تجردوا من كل زينة وجاه وزهو ، وطرحوا عنهم ما يتفاخر به الناس من أزياء وألقاب ورُتب ومناصب ، وتخففوا من أثقال المادية التى تئد روح الإنسان ، وتخنق فيه هيامه الفطرى إلى الحق والخير والجمال .

وامّحت بينهم فروق الألوان والأجناس والعناصر ، وفوارق الطبقات والدرجات ،

واستوى الملوك والرعايا ،

واستوى الأمراء والدهماء ،

واستوى الأغنياء والفقراء ،

واستوى الرؤساء والأتباع ،

فليسوا جميعاً سوى عباد الله .

وتشهد الدنيا فى هذا الحرم آية المساواة فى عقيدة لا يتفاضل الناس فيها إلا بالتقوى : أكرمهم عند الله أتقاهم .

يمحق بها الدين فى ختام رسالاته ، كل ما يئود إنسان العصر من مآسى التفرقة العنصرية وجرائم الاضطهاد المذهبى ، ولعنة الوثنية المادية . .

* * *

بصوت واحد ، فى حرم البيت العتيق غير بعيد من غار حراء ، يعلو هتاف ألف ألفٍ وخمسين ألف مسلم ، شهدوا هذا الموسم :

لبيك اللهم لبيك

لا شريك لك لبيك

ويسترجع بنا التاريخ مشهد المسلمين الأولين وهم يدخلون هذا المسجد الحرام يوم

الفتح ، فى السنة الثامنة للهجرة ، حافّين بالمصطفى عليه الصلاة والسلام ، إذ يصلى بهم فى الحرم المطهر من رجس الأوثان ،

وتتجاوب الآفاق ، عبر الزمان والمكان ، بدعائه عليه الصلاة والسلام يوم الفتح :

« الله أكبر الله أكبر
لا إله إلا الله وحده ،
نصر عبدَه ، وأعز جنده
وهزم الأحزاب وحده »

فهو من ذلك اليوم المشهود دعاء عيدنا ، فى الفطر والأضحى ، يصدع جبروت الطاغوت ، ويمحق أعداء الإنسان الذين يريدون ليطفئوا فى ضميره نور الإيمان « والله مُتم نوره ولَو كرِه الكافِرون » .

مِنَى :

١٢ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

فى دار الهجرة

« إلاَ تَنْصروهُ فَقَد نَصرهُ اللهُ إذ أخْرجَهُ الذين كَفروا ثانىَ اثْنَين إذْهُمَا فى الغَارِ إذْ يَقولُ لصاحِبِه لاتَحْزَنْ إنَّ الله معَنَا فأنزلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَليهِ وَأيَّدهُ بجنودٍ لم تَرَوْها وجَعَل كَلِمة الذين كَفَرُوا السُّفلى ، وكَلِمة اللهِ هى العُلْيا ، والله عَزِيزٌ حَكيم ».

صدق الله العظيم

مع التاريخ كان مسعانا من أم القرى إلى دار الهجرة .

صلينا الظهر فى المسجد الحرام ، وحملتنا الطائرة فى العصر من جدة ، فأدركنا صلاة المغرب مع الجماعة فى الحرم النبوى . وبتنا ليلتنا فى جوار الحبيب المصطفى ، يسعى بين أيدينا أهل الحرم مرحبين مكرمين .

هذه الرحلة المريحة التى لم تستغرق ما بين عصر ومغرب ، على متن طائرة ملكية فوق بساط ريح رُخاء ، أرهفت وعينا لحديث التاريخ عن رحلة نبينا المصطفى عليه الصلاة والسلام ، من دار مبعثه فى أم القرى ، إلى دار هجرته فى يثرب .

أبصارنا تحدق فى الطريق الصحراوى الوعر ، تلتمس من عَلٍ موضع « غارِ ثور » بأسفل مكة ، حيث أوى المهاجرُ ﷺ مع صاحبه الصديق ، ريثما تهدأ المطاردة الشرسة من طواغيت قريش .

خرجا إلى الغار من خوخة فى ظهر بيت الصديق ، بعد أن أشرف المصطفى على مهد مولده ودار مبعثه فاستوعبها بنظرة حزينة وقال يودعها :

« والله إنك لأحَبُّ أرض الله إلى الله ، وإنك لأحبُّ أرض الله إلىَّ . ولولا أن أهلكِ أخرجونى منك ، ما خرجت » .

وفى غار ثور كان مأواهما ثلاث ليال ، والمطاردون يَعْدُونَ فى أثرهما ، ويبلغون الغار فيهمّون باقتحامه ، لولا أن صدَّهم عنه نسيجُ عنكبوت على فتحته ، وحمامتان وحشيتان وقعتا عليه .

قال الصديق للمصطفى : لو أن أحدهم نظر إلى قدمه لرآنا .

فكان جوابه ، ﷺ : [لا تحزن إن الله معنا] .

وفى هدأة المساء من الليلة الثالثة لمقامهما فى الغار ، سَرَيا مع دليلٍ ثقة أخذ بهما طريق الجنوب من أسفل مكة ، وكان غير مطروق .

الطريق الوعر يتراءى لنا من نوافذ الطائرة ، بكل مخاطره ومفاوزه والتاريخ معنا ، يتتبع خطوات المهاجر حتى يثرب ، واصلا إليها من قُباء . .

وفى أهل المدينة ، آنسنا ملامح أجدادهم الأنصار من أوس وخزرج ، يوم احتشدوا هناك لاستقبال نبيهم المهاجر ، عليه الصلاة والسلام .

وفى أصواتِهم إذ يرحبون بضيوف الحمى من حجاج الموسم ، رجعُ هتاف الأنصار يوم الوصول :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجبَ الشكرُ علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

* * *

المسجد النبوى يأخذ القلوب والأبصار بجلاله وعظمته ، وسعة رحابه وفخامة مبناه . الأجيال من أمة محمد ، ﷺ ، قد أغدقت عليه من حبها ما لم يحظ بمثله مثوى بشر . وبذلت له من فنها ومالِها ، فى أريحية وسخاء . وجلبت له من ديار الإسلام ، فى المشرق والمغرب ، نادر الرخام وثمين الخشب وبهىَّ الثريات ، وفرشت رحابه بفاخر البسط والسجاجيد ، نسجتها أيدى مهرة الصناع من الشعب الإيرانى المسلم .

وتبقى روح المكان فى أنقى أصالتها وعراقتها ، كأن لم تمسسه يدٌ بالتغيير منذ شهد التاريخ بناء هذا المسجد فى الأيام الأولى بعد الهجرة .

دخل المصطفى المدينة من قباء يوم الجمعة ، وسط حشد من المهاجرين والأنصار ، فأدركته صلاتُها فى حى بنى عوف بن سالم ، فصلى بالصحابة أول جمعة بالمدينة . ثم أرخى العنان لناقته القصواء وهى تشق الزحام لا يدرى أحد أين يكون مقام المصطفى فى دار هجرته ، وكل بيوتها مفتوحة له ترحب به .

وبدا الموقف صعباً : كلما مرَّ بحىٍّ من أحياء الأنصار بادر إليه الرجال يسألونه شرف النزل فيهم ، وهو يتحرج من إيثار حىٍّ على آخر فيردُّ معتذراً : « خلوا سبيلَ ناقتى » .

إلى أين ؟ إلى حيث تمضى به القصواء .

وقد خطت وئيداً تشق الزحام حتى بَرَكت به عند مربد هناك . فحطَّ المهاجر رحله وقام يصلى .

على ساحة هذا المربد ، بُنى المسجد النبوى : ثانى الحرمين ، ومزار المسلمين على مر الزمان .

وتنافس المهاجرون والأنصار فى بنائه بما تيسر من مواد : اللبن والجريد والليف ، وبعض الحجارة والخشب ، والمصطفى معهم ، يشارك ويوَجِّه ويعين . حتى تم البناء ، لم يستغرق أكثر من أيام معدودات . ومن حول المسجد ، بُنيت تسعُ حجرات تفتح على ساحته ، لتكون دار النبى المهاجر .

وكان مبنى المسجد والحجرات بسيطا متواضعاً ، بعضه من حجارة مرصوصة ، وبعضه من جريد يُمسكه الطين ، والسقف كله من جريد .

وشُدَّت خشبات بالليف ، فكانت سريراً لمن اصطفاه الله خاتماً للنبيين عليه السلام .

وغيرَ بعيد من المدينة والحجاز ، كانت قصور الحكام والأمراء والأغنياء ، فى الحيرة وغسان واليمن ، وفى مصر والحبشة وفارس ، تعلو سامقة شامخة . ساطعة بأضواء البذخ والترف ، فتخطف أبصار الدنيا عن ذلك المبنى البسيط المتواضع الذى لم يلبث سنا نوره أن كسف ضوء كل ما عرفت الدنيا من قصور لكسرى وقيصر وفرعون ، وإمبراطور ونجاشى وملك .

وفى الأحياء اليهودية الناشبة فى يثرب ، وفى مستعمراتهم بشمال الحجاز ، دورٌ مشيدة وحصون منيعة ، تطل على المبنى البسيط المتواضع لنبى الإسلام ، فيبدو لها فقيراً أشد الفقر . ويلتقط أهلها ما يتلو الأميون من آيات القرآن فى الحث على الإنفاق فى سبيل الله ، برًّا وتراحما وتكافلا . فتذيع القالة اليهودية الفاحشة : « إن الله فقيرٌ ونحنُ أغنياء » :

وتمضى الأعوام والقرون ، توسع من رحاب المسجد وتسخو فى العناية به والبذل له ، وهو هو ، بروح عراقته وجوهر شخصيته .

* * *

ليلتنا الأولى بدار الضيافة فى جوار الحرم النبوى ، كانت مع التاريخ إذ يروى حديث هذه المدينة التى فُتِحت بالقرآن من قبل الهجرة ، ففتحت قلبها وبيوتها لهجرة الإسلام . وقد كانت إلى ماض قريب ، تبدو بعيدة عن مسرح الأحداث ، وإن لم تصرف سمعها عن الصراع الدائر فى مكة بين الوثنية والإسلام ، وهو يدنو من ذروة تعقُّده مؤذناً بوشكِ تحولٍ فى مُتَّجَه الأحداث .

قبل الهجرة بسنتين ، أهلّ موسم الحج وخرج المصطفى كدأبه فى كل موسم ، يعرض الإسلام على وفود القبائل العربية ، وقومُه أشد ما كانوا عليه من خلافه ورفض دينه ، إلا قليلا ممن آمن به .

وبدت الجولة فى أولها ، مدعاةً إلى يأس وقنوط :

سعى إلى « منى » حيث مجتمع الحاج ، فوقف على الحشود هناك داعياً ومبشراً ونذيراً ، فتصدّى له عمه أبو لهب ، يكذّبه ويصدّ الناس عنه .

وانتظر ﷺ حتى انصرفت القبائل من مِنى إلى منازلها فى مكة ، فأتى كندةَ فدعاهم إلى الإسلام فأبوا عليه .

وكذلك ردَّه بنو كلب ، لم يقبلوا دعوته .

ثم أتى بنى حنيفة فى منازلهم ، فلم يكن أحدٌ من العرب أقبحَ عليه ردًّا منهم .

وانتقل بدعوته إلى بنى عامر بن صعصعة ، فساوموه بالبيعة ، على أن يكون لهم الأمر من بعده !

ولما قال ، عليه الصلاة والسلام : « الأمر إلى الله يضعه حيث شاء » . ردَّ المساومون : « أفنهدف نُحورَنا للعرب دونَك ، فإذا أظهرك اللهُ كان الأمر لغيرنا ؟لا حاجة لنا بأمرك » .

ومن حيث بدت الأبواب كلها موصَدَة هناك فى وجه الإسلام ، ظهرت يثربُ على الأفق الشمالى البعيد ، تجذب إليها متَّجه الأحداث من دائرته المقفلة فى أم القرى :

لقى المصطفى فى (العقبة) نفراً من اليثربيين الخزرج ، دعاهم إلى الإسلام فأجابوه ، وقالوا :

« إنا قد تركنا قومَنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك . فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه ، فلا رجلَ أعزُّ منك » .

ثم أخذوا طريقهم إلى الشمال عائدين إلى بلادهم ، ومعهم صحابى جليل من صميم قريش . هو « مصعب بن عمير بن هاشم » موفداً من قِبَلِ المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ليقرئهم القرآن ويفقههم فى الدين .

ونزل مصعب على أنصارى من الخزرجيين أصحاب بيعة العقبة الأولى : « أسعد ابن زرارة » كبير بنى النجار ، أخوال أبى محمد ، عبد الله بن عبد المطلب .

فحدث أن خرج مصعب يوماً مع ابن زرارة ، إلى حىّ بنى عبد الأشهل ، واجتمع إليهما رجال من الأنصار ، فسمع بمقدمهما « سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير » وهما يومئذ سيدا قومهما ، وكلاهما على دين آبائه .

ونخرج سعد بن معاذ من مواجهة أسعد بن زرارة ، وهو ابن خالته . فحرَّض أسيدَ ابن حضير على أن يقوم فيردَّه وصاحبَه عن الحى .

التقط ابن حضير حربته ، ثم أقبل إليهما فقال متوعداً :

« ما جاء بكما إلينا تسفِّهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » .

قال مصعب بن عمير : أو تجلس فتسمع ، فإن رضيتَ أمراً قبلتَه ، وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تكره !

فركَّز « أسيد » حربته وجلس متكئاً عليها ، يسمع ما يقول مصعب عن الإسلام ، وما يتلو من القرآن .

ثم قال وقد زايله تقبُّضُه وتجهمه : ما أحسن هذا الكلام ؟

وأسلم . وانطلق عائداً إلى حيث ترك « سعدَ بن معاذ » فى جمع من قومه ، فعرف سعد أنه جاء بغير الوجه الذى ذهب به .

وسأله عما فعل بالرجلين ، مصعب وأسعد ، فقال : كلمتهما فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، وإنى لأخشى على ابن خالتك من بعض القوم .

فقام سعد مغضباً ، فما أبعد حتى رأى الرجلين يتجهان إليه فى طمأنينة ، وعرف أن أسيد بن حضير ، إنما أراد له أن يسمع منهما .

وتجاهل مصعباً ، وقال لأسعد ، ابن خالته :

– يا أبا أمامة ، أما والله لولا ما بينى وبينك من قرابة ، مارُمتَ هذا منى . أتغشانا فى ديارنا بما نكره ؟

فترك أسعد الكلمة لمصعب الذى قال :

« أو تقعد فتسمع ، فإن رضيت أمراً ورغبتَ فيه قبلتَه ، وإن كرهتَه عزلنا عنك ما تكره ؟ » .

قال ابن معاذ : أنصفتَ

وتكلم مصعب ، وقرأ القرآن .

وقبل أن يلفظ سعد بن معاذ بكلمة ، عرف القوم الإسلام فى وجهه ، لإشراقه وتهلله .

وعاد إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فأجابوا جميعاً « فما أمسى فى حىٍّ بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة ، إلا مسلماً ومسلمة » .

* * *

فى الموسم التالى كانت بيعة العقبة الكبرى التى شهدها ثلاثة وسبعون رجلا من الأوس والخزرج ، وامرأتان أم عمارة نسيبة بنت كعب ، وأم منيع أسماء بنت عمرو بن عدى .

وعادوا إلى المدينة والإسلام معهم ، قد بدأ ببيعة العقبة الكبرى مرحلة جديدة مؤذنة بتحول حاسم فى اتجاه الأحداث .

فبعدها بسنة واحدة ، كانت الهجرة التاريخية التى اختارها ثانى الخلفاء الراشدين « عمر ابن الخطاب » بداية للتاريخ الإسلامى .

تقديراً لجلال الحدث الذى كان منطلَق تحول حاسم وخطير فى تاريخ الإسلام .

* * *

ونطوف بمعالم المدينة وضواحيها ، والتاريخ معنا دليل وشاهد :

هذه « قباء » منزل المهاجر عند وصوله من مكة ، وهذا مسجدها ، أول مسجد بنى فى الإسلام .

وهذه بدر ، تعيد ذكرى « يوم الفرقان » فى السنة الثانية للهجرة حيث كانت الجولة الأولى من الصدام المسلح بين الإسلام وطاغوت الوثنية . وفيها تحددت موازين القوى ، لا بين هؤلاء وهؤلاء فحسب ، بل فى كل صراع بين حق وباطل .

وذهبتْ بدر عبرة ومثلا :

القتال « يوم الفرقان » لم يكن بين قلةٍ وكثرة فحسب ، ولكنه كان بين كثرة يعوزها سلاح الإيمان ليس فيها من يقاتل إلا وهو يفكر فى حماية الجاه الموروث ويتقى الموت ، وقلة مؤمنة صابرة ليس فيها من يقاتل إلا جهاداً فى سبيل الله وغضباً لما انتهك من حرماته ، لا يبالى على أى جنب كان فى الله مصرعه .

« قَد كان لَكم آيةٌ فى فِئتين التقَتا فئةٌ تُقاتِل فى سَبيلِ الله وأُخْرى كافرةٌ يَرونَهم مِثلَيهم رأىَ العَيْنِ ، واللهُ يؤيِّدُ بنصرِه من يشاءُ ، إن فى ذلك لَعبرة لأُولى الأبْصار » .

* * *

وهذا جبل أُحُد ، ما يزال حيث هو ، يروى حديث يومه المشهود ، ويعطى درسَه وعبرتَه :

فيه خرجت قريش بحدِّها وحديدها وأحابيشها ومَن والاها من بنى كنانة وأهل تهامة ، ثأراً لقتلاها فى بدر ، ورحضاً لعار الهزيمة . . .

ونزل الجيش الزاحف من مكة على شفير الوادى مقابلَ المدينة ، وخرج له المصطفى بجنده المهاجرين والأنصار .

والتحم الجيشان . وحين بدا النصر للمؤمنين لا شك فيه . وولت قريش الأدبار عن معسكرها وتركت لواءها مطروحاً تحت مواطئ أقدام المنتصرين ، تسرع رماة المسلمين ، فمالوا إلى معسكر قريش التى ولت الأدبار عنه ، فكشفوا ظهور المسلمين لخيل المشركين التى

لاحت لها الفرصة ، فكرَّت على المسلمين من حيث انكشفوا . .

وتغير وجه المعركة ، ليتعلم المسلمون الدرسَ . .

* * *

وهنا وهناك ، حيثما اتجهنا وأنى أقمنا ، كانت أطياف الكتائب الأولى من حزب الله ، تحفّ بنا وتجلو لبصيرتنا أروع مواقف البطولة ومشاهد الجهاد ، وتحيي فى نفوسنا الأمل الضائع ، وتذكرنا بأمجاد ماضينا الأغر الذى شهدنا التاريخ فيه نملى عليه فيكتب ونوجهه فيسير . .

* * *

وحان أوان الرحيل ، فودَّعنا الحبيب فى مثواه ، وكأنا نودعه يوم رحل عن دنيانا بعد أن أبلغ رسالته ، وترك للمؤمنين من بعده أن ينشروا الدين والحق فى الآفاق ، وأن يحملوا لواء القرآن إلى الأقطار من مشرق ومغرب . .

وكانت آيته ، ﷺ بعد أن أتم رسالته ، أن يجوز عليه المرض والموت ، كما جازت عليه أعراض البشرية وهمومها وعواطفها لكيلا يُفتَن به المسلمون فينسوا أنه بشر رسول ، كما فُتِن مَن قبلهم فاتخذوا نبيهم مع الله إلهاً :

« وَمَا مُحمدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبلِه الرُّسُلُ أَفَئِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتم على أَعْقابكُمْ ومَن يَنْقَلِبْ على عَقِبيهِ فلَن يَضُرَّ اللهَ شيئاً وسَيَجزِى اللهُ الشَّاكِرينَ » .

ودفنوه هناك ، حيث مات فى حجرة زوجه أم المؤمنين السيدة عائشة بنت أبى بكر .

دفنوا محمدَ بن عبد الله الهاشمى القرشى .

وعاش الرسول ﷺ ، خاتم النبيين الذى أرسله الله بالهدى ودين الحق ، فى ليلة القدر المباركة من شهر رمضان المبارك .

« سلامٌ هى حتى مَطلعِ الفَجْرِ »

المدينة المنورة :

٢٠ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ

عود على بدء

« إن هذِهِ أمَّتُكم أمَّةً وَاحِدةً »

رحلتى هذه المرةَ . كانت للحج وزيارة الحبيب المصطفى ، وقد عقدت العزم على أن أقضيها فى النسك والعبادة والتأمل ، لا أخلطها بشىء من شواغل الدنيا إلا ما لا حيلة لى فيه من هموم راسخة فى أعماق النفس .

من ثم ، لم يكن لرحلتى أى برنامج خارج منطقة الحرمين . بل إنى عزمت كذلك على الاعتذار عما عسى أن أتلقاه من دعوات خاصة ، أو اجتماع بالزملاء الأدباء والكُتاب ، راجية أن أتوه عنهم فى ركب الحجاج المليون ، حيث لا يكاد أحدٌ يتميز من أحد ، ونحن فى زى الإحرام ومواكب العبادة .

وفاتنى أن الملتقى الإسلامى الكبير فى الموسم ، يحقق تعارفنا من حيث ندرى ولا ندرى . فتفتح قلبى للقاء إخوة وأصدقاء من أقطار المشرق والمغرب ، بعد أن شط بنا النوى فتباعدت الديار ونأى المزار . وآخرين منهم جمعتنا على البعد زمالة الفكر والوجدان ، وإن لم يسبق لنا تعارف ولقاء .

ثم كانت آية الموسم الجامع ، أن يلتقى بعضنا بعضاً مع اختلاف الألسنة والأجناس . فتتعارف بالقلوب وإن لم نتعارف بالأسماء . وتتصافح وجوهنا وإن لم تتصافح الأيدى . وتشدّ بعضنا إلى بعض رابطة العقيدة ، نعمة الله على هذه الأمة ، تتجلى فى ملتقاها عند القبلة الواحدة فى مهد النبوة ومنزل الوحى .

ومن حيث رجوت أن أتقى مخالطة الناس . صرت أسعى إليهم تلقائياً مستجيبة إلى جاذبية الملتقى ، ومدركة ما غاب عنى من حكمة الحج فى تعارفنا وترسيخ شعورنا بوحدة الانتماء إلى أمة القرآن . .

* * *

ولما دنا الرحيل ، رحبت بدعوة لزيارة جامعة الملك عبد العزيز بجدة ، لأشهد المدى الذى وصل إليه جهاده فى مقاومة التخلّف والجهل والجمود ، وأرى ماذا آتى غرسُه من طيب الثمرات .

وكنت أتابع من بعيد ، كتائب الشباب وهى تخرج من أعماق البادية فتقتحم الأسوار إلى آفاق العلم والمعرفة لكنى ما توقعت أن يشهد جيلى ، خروج بنات الجزيرة من متاهة الجهل المفروضة عليهن باسم الدين ، إلى رحاب الجامعة . ولم أكن نسيت السدود الصماء التى رأيتها مضروبة على (حريم الجزيرة) تتحدى أى محاولة لإخراجهن إلى دور العلم . وقد سألت فى رحلتى الأولى : فيم هذا التعطيل لعقل المرأة المسلمة والوأد لوعيها ، والعلمُ فى ديننا فريضة على كل مسلم ومسلمة ؟

فكان الرد : يخشى المشايخ أن يكون تعليمها ذريعة فساد خلق .

ولما لم أفهم كيف يمكن أن يكون العلم مفسدة ، قيل لى فيما قيل : إن البنت إذا تعلمت القراءة والكتابة ، لم يؤمَن أن تتسلل إليها ومنها رسائل غرامية ، فتنساق إلى الغواية والإغواء !

يومها لم أملك إلا أن أقول : لقد قرأنا وكتبنا ، وإن إحدانا لتملك من أمرها ، ما لا يملكه الحراس الأشداء . عِفتها كانت وستظل أبداً ملكَ يديها ، لاتُفرض عليها من خارج . وهى فى الإسلام مكلفة كالرجل سواء بسواء ، تحمل وحدها أمانة إنسانيتها وتبعة كسبها ومسئولية عملها . وقد « ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأةَ نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النارَ مع الداخلين ، وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربِّ ابنِ لى عندك بيتاً فى الجنة ونجِّنى من فرعون وعمله ونجِّنى من القوم الظالمين ، ومريمَ ابنةَ عمران التى أحصنت فَرْجَها فنفخنا فيه من روحِنا وصدقتْ بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين » .

وكان أخشى ما أخشاه ، وأنا أرى بنات الجزيرة معطلات العقل موءودات الوعى ، أن يُظن بالإسلام أنه يريد للمرأة أن تُمسخ آدميتها فتهبط إلى دونية الدواب العجماء ، وإنى لأعلم أنه الذى حرر عقولنا وضمائرنا ، وأن الله سبحانه ، مَنَّ علينا بأن بعث فينا نبينا عليه الصلاة والسلام يعلمنا الكتاب والحكمة . فإذا أفتى مشايخ نجد بأن تعليم البنت مفسدة ينبغى أن تُتقى سدًّا للذرائع ، والدنيا تعرف لهؤلاء المشايخ فقههم للإسلام وجهادهم فى مقاومة البدع وتنقية العقيدة من الشوائب ، فإن الناسَ يُعذرون إذا ظنوا بالإسلام الظنون ، وحسبوا أنه يفرض على المرأة أن تعيش دُمية صماء بكماء عمياء البصر والبصيرة .

ومعاذ الله أن نكون هكذا ، ونحن نتلو من آياته المحكمات .

« إن شرَّ الدواب عند الله الصم البكمُ الذين لا يعقلون » . .

وتركتُ الجزيرة ، من عشرين سنة ، وليس فيها مدرسة واحدة لتعليم البنات . .

المدنية العصرية غزت بيوت نجد والأحساء ، فسمحت (للضوء ، والسينما والراديو) بدخول أجنحة الحريم .

ولم تسمح بدخول كتاب !

ومضى جيل واحد فحسب ، فُتحت فيه أبواب العلم الموصدة فى وجوه البنات ، فاجتزن المراحل إلى التعليم العالى . وهؤلاء هن فى (جامعة الملك عبد العزيز بجدة) ، يوشكن أن يتممن مرحلة الليسانس ، ويحققن ما لم يجرؤ عهد العاهل الراحل على الخوض فيه ، فتركه أمانة لعهد ابنه الملك فيصل ، الذى جعل لتعليم البنات فى المملكة ، رياسة خاصة تعوض ما فات ، وتصل ما انقطع من ماضى هذه الأمة ، يومَ كانت المرأة تشارك فى صنع تاريخها مشاركة ذات بال ، وتفرض وجودها الفعال المؤثر ، على حياة قومها فى الجاهلية والإسلام .

وفى أنحاء الجزيرة ، باديتها والحضر ، تقوم مدارس البنات منارات هدى ، وتستقبل فى كل عام مع أفواج الطالبات ، فوجاً من معاهد المعلمات يحملن أمانة القيادة الصعبة على الدرب الخطر ما بين متاهة الجهل ورحاب المعرفة . فأذكر بهن تلميذات مدرسة النبوة من الصحابيات والتابعيات ، وأجيالا بعدهن من المسلمات ، بلغن مرتبة المشيخة فى علوم العربية والإسلام ، وإليهن كانت رحلة طلاب العلم فى عصور عز المسلمين . . .

وسلام على من اتبع الهدى . . .

جدة :

١٥ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ .

من وحْيِ الملتقى

«وأذانٌ مِن اللهِ وَرَسُولِه إلى النَّاسِ يومَ الحجِّ الأكبرِ»

من ذُرَا عرفات ، إلى سفح المكبَّر

فى طريق إلى المسجد الحرام ، ذكرت المسجد الأقصى فى محنته ، وقد بعُد عهده بوفود الحجاج ، وحطَّ عليه الشيطان يريد ليجعل منه معبداً للطاغوت . فتجسمت المفارقة بين المسجدين ، ضُرِب بينهما بسورٍ باطنُه فيه الرحمة ، وظاهرُه من قِبَلِه العذابُ .

وفى مسمعى نداء عاهل الجزيرة « خادم الحرمين » يؤذّن فى وفود الموسم بالجهاد ويذكر المسلمين بعار إسرائيل ، ويستنفزهم لمعركة الشرف والبقاء ،

فهل يبلغ الأذان من المسجد الحرام مسمعاً من أمةٍ تولى وجهَها شطره حيث تكون ؟

* * *

من فجاج الأرض حَجُّوا عابدينْ
وعلى عرفات قاموا خاشعين
قد تناسَوا ما على أرض البشرْ
من هموم وعداوات وشر
وتماحت بينهم كل الفروقْ
فى حمى الكعبة والبيت العتيق
والمحنت هامُ الرعايا والملوكْ
للذى تعنو له كلُّ الجباه
وإليه ، فى سماوات عُلاه
رفعوا النجوى دعاءً وصلاه
« ربنا لبيك إن الحمد لكْ »

* * *

(١)

خشع الكون لمرأى المؤمنين
مذ أهلوا فى خشوع مُحرِمين
عيدُهم حج وسعى وفداء
وأمانى عمرِهم هذا اللقاء
لِيُلبوا ضارعين قانتين
وحدَك اللهم ياخالق نعبدْ
وعلى نورِك ياربَّ محمد
كلُّ مسعانا لدُنيا أو لدينْ

(٢)

وعلى سفح المكبَّرْ
عند أولى القبلتين ،
ثالث الأقداس صنو الحرمين
فى جوارِ المهدِ من أرض السلام
نشر الشيطان طاغوت الظلام
ومضى يعوى ويزأر . . .

* * *

وتوارى القدس فى جوف الدجَى
بائس الأطلال محجوبَ السنى
يسأل الأنقاض : « أين الموعدُ ؟
لِيُطلَّ الفجر من ذاك الضباب
أين مسرانا وأين المعبدُ ؟ »
ثم لاردَّ ، سوى رجع الصدى
وعواءِ الوحش من مرعى الذئاب

* * *

وعلى المهد المسهَّدْ
غصنُ زيتون يتيم
وبقايا من هشيم
وصدى صوت بعيد يتردد
من ذُرا عرفات إلى سفح المكبّر :
« وحدك اللهم نعبد . . »
وعلى مسرى محمد ،
بجوار المهد من أرض السلام
ينشر الشيطان طاغوت الظلام ،
ويعربد . .

أغنية للعيد

«إلى أمتى ، فى لياليها الساهرة ! » .

(١)

عيدُنا كان على طول المدى
يملأ الأفْق بهَاءً وسنى
كلما هلَّ احتشدنا للقائهْ
ونهلنا الأنسَ من فيض عطائه
وشدَونا ، والدنَى تصغى لنا :
« ربنا لبيك إن الحمد لك »

* * *

الملايينُ على مرّ الزمنْ
من حجاز وعراق ويَمَنْ
من ضفاف النيل حتى الأطلسِ
من رُبا الشام وبيتِ المقدسِ
كم رآها العيد فى يوم مِنى
تلتقى روحاً وقلباً ومُنى
بهتاف العيد يعلو فى الفضاء
ربنا لبيك يانور السماء

(٢)

عيدنا اليوم وجوم وغضبْ
يرفض الصبر ويجفوه الطربْ
جُرحُنا ينزف من جرح الحِمَى
فيرد الشهدَ مُرًّا علقما

عُصبةُ السفاحين أعداء البشرْ
دنَّست أرض الرسالات الكُبَر
شوهتْ وجه الحياة
مسخت كلَّ القيمْ
واستباحت حرمة الإنسانِ
فى قُدس الحرمْ

* * *

عيدُنا ثأرُ ألوف الشهداء
وملايين الضحايا الأبرياء
ومآسى اللاجئين الغرباء
وبطولات الجنود الشرفاء
وهتاف بدعاء المصطفى
يوم عيد النصر فى أم القرى :
ربنا لبيك إن الحمد لك .

* * *

وهو ذكرى من مضى
من أحبابنا ،
وحديث الغد عنا ،
لبنينا بعدنا
لن يقولوا إننا كنا هنا
قد لهونا أو نسينا ما بنا
لن يقولوا إننا نمنا على ضيم بنا ،
نتسلى بِحَكايا ، من هنا أو من هنا
وفكاهات أَلِفْنا مضغَها
نبعد الهمَّ بها عن بالنا
لن يقولوا إننا فى أعيادنا

قد غفونا لحظة عن مأساتنا
وكأنا لا نعى أبعادها ،
وكأنا لا نرى آمادها

* * *

عيدُنا ثأرُ ألوف الشهداء
وملايين الضحايا الأبرياء
ومآسى اللاجئين الغرباء
وبطولات الجنود الشرفاء
وهتاف بدعاء المصطفى
يوم عيد النصر فى أم القرى :
ربنا لبيك إن الحمد لك

من جنود الجبهة ، إلى حجاج الموسم

فى طواف الوداع ، صبحَ يوم الرحيل ، بدأت أحس ثقل الهموم التى تخففت منها منذ حللتُ بالحمى الآمن . وذكرتُ كتائب المرابطين من شباب الأمة ، على خطوط وقف القتال ، يقضون عيدهم ، كما قضوا أعياداً قبله ، فى انتظار معركة الشرف والوجود والمصير .

فكأنى سمعتهم ، فى رؤياى ، يُفضون إلينا بنجوى أرواحهم الظامئة إلى الفداء :

* * *

أهلَنا الحجاجَ من شرق ومغربْ
ياضيوف الله فى أم القرى ،
وضيوف المصطفَى فى روض يثربْ ،
سلَّم اللهُ عليكم ،
وهنيئاً عيدُكم ،
فى حمى البيت الحرام .

* * *

أهلنا . نحن أيضاً كم وددْنا .
أننا كنا هناك ،
محرمين ، طائفين عابدين
نجتلى نورَ الحرمْ ،
نرتوى من نبع زمزمْ
ثم نسعى زائرين ،
مرهَفى الشوق إلى مثوى الحبيب
صلوات الله عليه والسلام

* * *

أهلَنا ،
هذه الرحلةُ كانت ،
فى الصبا ملءَ رؤانا
قبل أن نبلغ تكليف العقيده
قبل أن ندرك مغزاها فريضه
فى صبانا ، كم شجانا كلَّ موسم
موكبُ الحجاج من أهلٍ وجيره
ومراسِيمُ الوداع ،
وحشودُ الضارعين ،
يسألون الركب فى يوم الرحيل :
اذكرونا فى مِنى ،
وعلى عرفات لا تنسوا الدعاءْ
واذكرونا فى الحرمْ
واحملوا منا السلام
للحبيب المصطفى خير الأنام

* * *

وبَقِينا فى انتظارْ ،
كلما قلنا متى نذهب صُحبَه ؟
قيل : صبراً ، أنتمُ الآن صغار
وسيأتى دورُكم ، حقق الله مناكُم .

* * *

أهلنا ،
فى صبانا كم خرجنا ،
من قرانا والبنادرْ
عندما تأتى البشائر .
للقاء العائدين ،
بالدفوف والطبول

والمشاعل والمجامر .
وملأنا الجو شدواً
بأغاريد الفرح ،
وتحيات الوصول .
وسهرنا الليل نصغى ،
بالقلوب والعقول ،
لحديثِ الحاج عن أنس القبول ،
والمشاهد والمواقف ،
والمناسك والشعائر
وازدحمنا حوله نبغى القِرى ،
من هدايا وكنوز وذخائر :
لمحةً من نور مكه ،
جرعةً من ماء زمزم
نفحة من عِطر طيبة
تمرة من نخلِ يثرب
ونقول الله أكبر ،
ياهناه ، حقق الله مُناه !
والحبيب قد دعاه ،
فمتى ننمو ونكبر؟

* * *

رحلة كانت لنا ،
حلم الصبا وعدَ الشباب ،
قبل مأساة الهزيمهْ
وكبرنا ، فعرفناها عقيده
عبأتنا للجهاد ديناً وعباده
حشدتنا هاهنا خمس سنين

فى انتظار المعركهْ
وأمانينا فداء وقتال وشهاده

* * *

فاذكرُونا أهلَنا ،
نحن جند الله جيل المعركه
اذكرونا فى مِنى ،
وعلى عرفات لا تنسوا الدعاء
بلغوا عنى الحبيبْ ،
أننا نرعى حماه ،
ونؤدى فرضَنا ،
وعلى وعدِ اللقاء ،
فى رحاب الخلد مثوى الشهداء
قد نذرنا هدينا ،
عندما يأتى الأوان ،
يوم عيد نحرنا ،
وسلاماً أهلنا حجاجَ مكه
ياضيوف الله فى البيت الحرام
وضيوف المصطفى خير الأنام

فهل قد بلغت الرسالة ؟
أرجو وآمل . .

عرفات :
٩ من ذى الحجة ١٣٩٢ هـ